سفر النصر

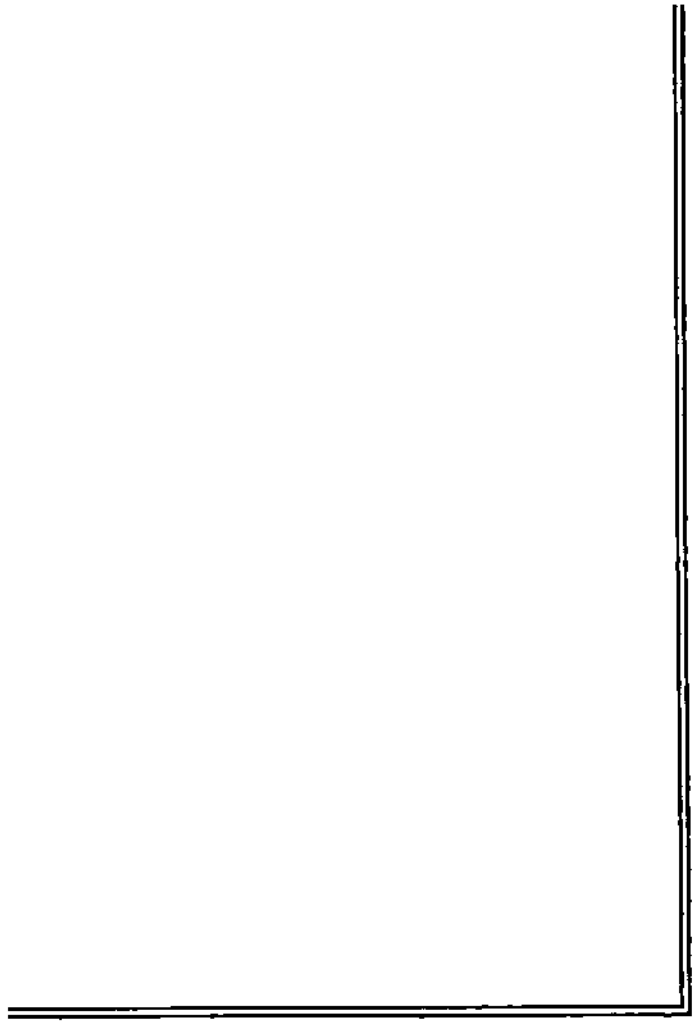

١

الهواء غير الهواء ، والأثير يحمل تشكيلات خاصة يستطيع فك رموزها.

كان الموسم موسم الحج ، طاف بالمشاهد التي كان يسمع ويقرأ عنها منذ صباه ، بدر ، أحد ، البقيع ، زمزم ، عرفات ، منى ، الصفا والمروة . لم يجد آثاراً شاهقة ، ولا معابد ضخمة .

ولكنه أدرك أن الظاهر ليس هو كل شيء ، وأن هناك حضارة لا تجد نفسها في العمارات ولا المباني الشاهقه ، بل تحمل تراثها خلال الهواء ، يعيشه الأبناء والأحفاد يتنفسونه ويتفهمونه .

وعرف أن الإنسان ليس جسداً فحسب ، ولكنه نفس أيضاً يسري في الاثير ، ويحوله إلى تشكيلات خاصة ، إلى لغه تنتظر من يفهم سرها .

وتعجب من هؤلاء الذين يريدون أن يفصلوا الكون عن الإنسان ، إنهم يقفون عند الظاهر ، عند الشيء الغفل ، ويحرمون الكون من نفسه ، الإنسان هونفس الكون ، هو سره ، هو الاسم الذي يعطيه معناه ، وتذكر قصة لجريليه ، نسي منها كل شيء حتى عنوانها ، ولم يبق منها في ذاكرته إلا رائحة القهوة تصدر من الفنجان ، إن تلك الرائحة الساخنه تشي بأن إنساناً كان هنا ، ثم غادر المسرح تاركاً وراءه أنفاسه تعمر المكان .

وتوصل وهو في مكانه امام جبل أحد إلى نتيجة ، وهي أن الحضارة لا تقاس بالمباني الشاهقه ولا العمارات الضخمة ، ولكنها تقاس بأنفاس الإنسان ، وهي تشكل الاثير ، وجرب ذلك عملياً في سفراته المتعدده ، كان يحط في انجلترا فيحس أن الهواء يحمل بلغة قد لا يفهمها ، ولكنه يحس أن تلك اللغة تحمل تشكيلات موسيقية تختلف عما تلتقطه أذناه حين يذهب إلى الصين ، أو حين يرحل إلى القاهرة .

وتدربت أذناه على ذلك . فكان يقيس حضارة البلد بلغة أثيرها ، وكان يدرك من ذلك خصوصيتها ، ولم تعد تخدعه الظواهر الخارجية ، فقد تكون براقة تحجب عنه اللغة الحقيقية كان يحط في بعض البلدان الإفريقية ، يجد فيها الشوارع المستقيمة ، والعمارات الفخمة ، ولكنه يتحسس أثيرها ، فيذكره بالأحواء الأوروبية ، ويدرك على الفور أن الحضارة الخارجية التي يراها إنما هي وهم وخداع ، وأنها قد أنجزت وراء الإنسان .

هبط مرة إلى القاهرة بعد غيبة طويلة ، فحمل إليه الهواء أصواتاً خشنة ، ونبرات متداخلة ونغمات مجروحة ، لم ينفر فتلك لغة الهواء ، لغة تحمل أنفاس الناس وهمومهم ، لغة هي منهم وإليهم ، خير من أن تستعير تشكيلات أخرى ، قد تكون رضية هنية ، ولكنها غريبه كأقنعة المسارح .

واندمج في الأصوات الخشنة التي غاب عنها فترة طويلة ، وحمل إليه الهواء من بعيد نهيق حمار ، ونباح كلب ، وصياح ديك ، وبكاء طفل ، كانت الأصوات تتداخل وتتحول إلى كتله واحدة بفعل جاذبية عجيبة ، لم يعد يتبين خشونة الأصوات ولا تضاربها ، بل وجد نفسه قريباً من روح واحده تضم الجميع .

وفجأة سكتت كل هذه الأصوات وارتفع صوت المؤذن وحده يخترق الاثير ، ويمضي ومعه كل الأصوات نحو السماء ، لم يكن الصوت صوت مؤذن فرد ، بل كان صوت مجموعة من الأرواح الأثيرية تستراقص في الفضاء.

عند هذا الحد أدرك أنه لا يستطيع أن يمضي في تأملاته ، فقد أحس بشيء يتشكل داخله فطوح الأوراق ، وجر نفسه إلى فراشه متثاقلاً كأم تنتظر المخاض .

٢

رأى طائراً يجول في المنطقة ، لم يكن قد رآه من قبل ، ولكنه كان أليفاً إلى نفسه ، ليس مثله طائراً من طيور المنطقة ، وتذكر على الفور طائر "الكاه" ، لا يجد له نظيراً بين الطيور ولكنه يجده مرسوماً على جدران المعابد المصرية ، يقولون إنه يمثل روح الميت ، ويتلو الأهل الأدعية من كتاب الموتى المقدس ، حتى يعود هذا الروح إلى الجسد الهامد ، فينهض واقفاً من جديد .

وتذكر حديث البوذيين عن أن الروح لا تفنى ، إنها تخرج من الميت وتجول في المنطقة ، وتبحث عن الشخص المَوعود لكي تحل فيه .

وتوالت عليه الذكريات من قريته ، كان الناس لا يحزنون من أجل الميت ، بل ينظرون إلى أولاده ، وكأنه قد ولد فيهم من جديد ويرددون "ما مات من خلف" ، وكانوا يحسون بروح الميت وهي ترفرف على الدار في المناسبات المختلفة ، تبارك نجاح الابن ، وتقدم التهنئة للبنت .

وأحس وهو في مكانه بروح تجول في المنطقة ، يكاد يتحقق من ذلك وإن كان لا يستطيع أن يبرهن عليه ، أحسها قد تجمعت من أرواح الأجداد ، وأنها تتحول كل مساء إلى طائر ، يبحث عن الموعود ، ليتقمصه ويفضي إليه بالسر .

عند هذا الحد صاح : لا حياة لنا بدون هذا الروح ، لماذا نتركه يهيم في المنطقة دون أن نقبض عليه ، هو طائرنا ، هو الذي سيبعثنا ، نحن لا شرق ولا غرب ، بل نحن هذا الطائر .

ولا يدري لماذا تذكر من جديد كتابه " الوسطية العربية " ، ولماذا استشعر صوت وليده الأول ، وهو يشهق مستقبلاً الحياة .

٣

أسرعت الأرض في دورانها ، تحولت إلى كرة صغيرة ، ألقيت في جوف الفضاء ، فتفجرت شظايا.

توقفت أنفاسه ، وتفصد عرقاً ، وأحس ببرد شديد .

نظر إلى أعلى ، فرآه طائراً يسد الأفق ، عرفه من الوهلة الأولى وكأن بينهما رباطاً يمتد آلاف السنين ، كانت نظرته أليفة ، ولكنها عميقة ، تهتك ظاهر الجسد ، وتستقر في القلب مباشرة .

كان يقف في وسط السماء ، جناح يملأ الشرق ، وآخر يملأ الغرب ، ورأسه تقف بينهما منتصبة في اعتدال ، وكأنها قائمة الميزان .

كان هناك خلق صفر وسود يستظلون بجناحه الشرقي ، وكان هناك خلق حمر وبيض يستظلون بجناحه الغربي ، وهو منتصب يوزع ظله كالقسطاس المستقيم .

كان دائماً ينظر إلى أعلى في ثبات وترفع ، لعله لم يتنبه إلى بعض الصغار في جناحه الغربي ، يتسلون بنزع ريشه الملون ، ويصنعون منه وسائد ومراوح ، كان لا يأبه لهم ، فقط هو مشغول بالنظر إلى أعلى ، لعله كان يبحث عن شيء غائر بين النجوم .

كانت أجنحته تتحرك حركة خفيفة غير ملموسة ، ولكنها كانت متتالية ومتواصلة وسريعة ، كان واضحاً أنه يبذل جهداً خارقاً لكي يحفظ توازنه ، ولكنه لم يكن يشكو فقط كان ينظر إلى أعلى نظرات غير محددة لا تأبه للصغار .

نظرت إليه فأحسست بكبريائه ، ودعوت له بالثبات .

٤

أخذ الطائر يملي والراوي يكتب ، كان يستل المعنى من الأرواح الهائمة بين النجوم البعيده ، ثم يلقيه إلى الراوي ، فيتفجر شظايا داخله ، كان الراوي يجمع تلك الشظايا ويحيلها إلى لغة مفهومة .

أحس الراوي بالمباهاة والتميز ، فقد تحول إلى وسيط تقمصته الأرواح الهائمة وكلفته بأن ينقل عنها ، كان الحرص يدفعه أحياناً إلى سرعة الأخذ عن الطائر فتضيع منه أشياء ، وتأتي العبارة في النهاية مبتورة .

ولكنه مع التكرار تعلم أن يضبط نفسه ، وأن يصبر على الواردات والتجليات ، وتذكر حينئذ مقام الجنيد رضي الله عنه ، فقد كان في أول أمره يرقص ويصيح ، ثم أصبح ساكناً ، ولما سئل عن ذلك ، تلا قوله تعالى ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب** ﴾ .

٥

برك ومستنقعات ، طين ووحل ، دخان وضباب ، اعجاز نخل منقعر ، كائنات حلزونية هلامية ، تداخل بعضها في بعض ، لا يبين منها رأس من ذنب .

ظهر رجل فتبدلت الطبيعة على التو . اصطفت الأشجار صفوفاً صفوفاً ، صفوف النخيل ، صفوف السدر ، صفوف الأثل ، صفوف السيسبان ، تحركت الكائنات وتميزت ، وأصبحت لها أسماء .

تواردت على لسانه آيات بدء الخليقة في سورة البقرة ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا** ﴾.

وفهم السجود أكثر من معناه الظاهري ، إنه سجود لرمز العمل والتعمير ، الكون غفل وحين يظهر الإنسان على المسرح يصبح لكل شيء معنى ، وصاح لا وجود بدون الإنسان .

وتذكر قصة كان قد ترجمها لألان روب جرييه ، الكون يبدو فيها في حالته الأولى ، كل شيء مختلط ومتداخل وبلا معنى ، وفجأة يظهر إنسان وكأنه ضال تتسلط الشمس على عينيه ، فيربش ويحجبها بيده ، ثم يولي الكون ظهره ويعود ، يتركه بلا معنى كما استلمه بلا معنى ، وأدرك لماذا

تنمو الفلسفات العبثية في الحضارة الأوروبية ، إنها لا تحترم الإنسان ، تساويه بجذع الشجرة وبقطعة الوحل .

وتذكر أيضاً مجموعة من طلبته في الجامعة ، كانوا يتدافعون ويتصايحون : الويل للكفرة ، الويل للزنادقة ، الويل لأهل الجاهلية ، وتبسم وأدرك : كم هم سذج ، إنهم لم يفهموا المعنى الحقيقي وراء أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ، ولم يفهموا لماذا أذعن الملائكة أخيراً وبعد أن فهموا الحكمة الإلهية ، فسجدوا كلهم أجمعون ، إلا من أزاغه الله .

وكأن زراً قد أدير ، وإذا بآيات كثيرة تتوارد وكأنه يقرؤها للمرة الأولى ، آية من سورة الإسراء ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾ وثانية من سورة المؤمنون ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا** ﴾ وثالثة من سورة الإنسان ﴿**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**﴾ ، ورابعة من سورة التين ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ .

عند هذا الحد سرت في جسده هزة ، كانت أكمام النخيل قد تفتحت ، وأطل منها شمروخ تفوح منه رائحة الحياة ، وانهمك جعران في حفر الروث ، وشرع إنسان تحت النخيل يذيب زبر الحديد ويفرغ عليه قطراً .

٦

أخذته سنة من النوم ، فرأى أبو العلاء يقف بين ورود صناعية ، بيضاء لامعة ولكنها فارغة ، وحوله مجموعة من السحرة يحركون ثعابين من فسيفساء وزئبق .

وكان ينشد داليته :

غير مجد في ملتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنم شاد

وشبيه صوت النعي إذا قيس ... بصوت البشير في كل ناد

أبكت تلكم الحمامة أم غنت ... على فرع غصنها الميادِ

كانت في صوته حشرجة وقسوة ، وتسرب إلى إحساس بالعبث ، البكاء كالغناء ، والنذير كالبشير وأخيراً الإنسان كالتراب ، كان هذا الإحساس قوياً عارماً ، كاد يتحول إلى كابوس يأخذ بخناقي لولا أن أزحت الغطاء وصحت إنها قصيدة تخلو من الدفء .

وظللت مسهدا لم أنم وأخذت أتذكر .

كان أبو العلاء قد حرم على نفسه اللحم والطير واللبن ، كان لا يريد أن يؤثر نفسه بشيء تحتاجه الحيوانات ، كان يحبها أكثر من نفسه ، وكان أيضاً قد حرم على نفسه الزواج ، كان معادياً للحياة قست عليه فقسا عليها .

وتذكرت حين كنت في أوروبا ، كان الناس يحنون على الكلاب يربتون عليها ، يقدمون لها الحلوى ، والدواء والفراش ، كانوا يهدهدونها كأطفال ، ويناغونها كزهور .

ووجدت نفسي لا أرتاح لنغمة أبي العلاء ، ولا أتقبل حنو الأوروبيين على الكلاب ، إن هنا شيئاً مفقودا ، أبو العلاء لا يحب الحياة وإن كان يحب الحيوانات ، والأوروبي لا يحب جاره وإن كان يحنو على كلبه .

وتذكرت مسرحية كنت قد شاهدتها على المسرح القومي بلندن لا أذكر اسمها بالتحديد ، وكل ما أذكره أنها كانت عن هذا الجيل الذي شب خلال الحرب ، لقد فقد اليقين والحب ، وأخذ يعامل كل شيء بحياد وسطحية ، لا زلت أذكر تلك الممثلة الشابة ، ولا زلت أذكر جلستها وهي مرتخية بلا مبالاة ، لا يبدو في نظرتها شيء ، سوى أن ترضي غرورها كامرأة ، كل علاقة مع شاب تبدو سريعة ولا تعني شيئاً ، لا تفهم معنى الزواج ، ولا تفهم معنى الارتباط ، علاقتها مع أهلها لا تعني شيئاً ، كل شيء ينزلق تحت السطح سريعاً ، إنها تعيش كالقطة تجلس بجوار المدفأة ، تتمسح بصاحبها تلتمس ربتة حنان ، ثم تنام دون أحلام أو مستقبل .

وتذكرت بطل سارتر في روايته " الغثيان " كان يسخر من الاستقرار والنظام ، كان يضيق بسكان مدينته من الأسر البورجوازية ، يذهبون إلى أعمالهم ، ويركبون السيارات ، ويصاحبون الزوجات ، ويداعبون الأطفال ، وتساءل روكانتان بطل تلك الرواية ، ماذا يحدث لو أن هؤلاء قاموا في الصباح يفتحون الصنابير ، فإذا بهم يجدون الدماء تندفق بدلاً من المياه ، كان يتساءل ، عن ذلك وفي نبرته رغبة في أن تنقلب البيوت ، وتتحطم الصنابير ، ويموت البورجوازيون . وكان سارتر يرى بذلك أنه يبشر بفلسفة جديدة ، لا تستقر به إلى شيء ولا تهدأ إلى يقين ، كان يصف جيله بأنهم " مبحرون على ظهر سفينة " .

وكنا مجموعة من الشباب ، نجلس كل مساء على مقهى ريش ، كنا لا نزال نلوك أحداث ١٩٦٧ وكان حديثنا المفضل هو العبث ، نتنفس

العبث ، ونبشر بالعبث ، ونكتب عن العبث ، ونحتفي بالعبث ، ونرى ذلك فلسفة جديدة ، ودلالة العصرية والتمرد .

وأذكر وقتها أنني رحت أترجم لكافكا ومارسيل بروست واتيالو سفيفو وآلان روب جرييه ، وأقدم كل ذلك في كتاب تحت عنوان " الأدب وتجربة العبث " وكأنني أقدم سفر الخلود .

ولم يخطر ببال أحد منا وقت ذلك أن عبث ما بين الحربين كانت له ظروفه ، وأن عبث ما بعد ١٩٦٧ له ظروفه أيضاً ، وأن ما نسميه فلسفة قد يكون ظاهرة مرضية ، وأن ما نسميه تمرداً قد يكون تشنجاً ، وأن ما نسميه عصرية قد يكون نزوة .

عند هذا الحد صحت : كل شيء لا يصدر عن حب الإنسان ، فإن مآله إلى الزوال ، حتى وإن تزيى بأرقى الفلسفات .

٧

أخذت سعفها تتراقص في أجواز الفضاء كأنها صلوات المتصوفة ، والقمر يلقي وراءها غلالة بيضاء كالحليب المسكوب ، وظلها يفترش الرمل الفضي ، ويتخلل حبيباته ، ويمتزج الأبيض مع الأسود ، كما يمتزج الخير والشر ، والحياة والموت .

جلس إلى جذع النخلة يحادث نفسه ، إنه يحمل في يده ساعة اليكترونية ، وفي جيبه جهاز تسجيل يديره ، فيسمع آلاف النغمات من مختلف الأوركسترات ، وهناك في السيارة التي تركها بعيداً جهاز تليفزيون ، يحركه فيشاهد أنواع الرقص ومختلف الحركات ، ولكن كل ذلك يتضاءل أمام تلك اللحظة وهو يستند إلى جذع النخلة ، إن رقصات ساقها في السماء تفوق رقصات بحيرة البجع ، وإن وشوشة سعفها في الفضاء تفوق غناء الكورال في السيمفونية التاسعة ، وإن اللوحة التجريدية التي رسمها ظلها فوق الرمال تفوق لوحات بيكاسو وسلفادور دالي . لقد سمع الكثير في حياته ، وشاهد ، وقرأ ، وجرب ، وسافر ، ولكن كل هذا يضيع في غمار تلك اللحظة الأثيرية ، إنه يحس بوشيجة ما مع هذا النبات الذي يضرب في أغوار التربة ، وتذكر قول الرسول ﷺ : " نعمت العمة لكم النخلة " . إنه يحس الآن أن هذاالحديث شيء فوق المجاز والبيان ، إنه يعبر عن صلة حقيقية مع هذا النبات أقوى من صلة الرحم ، إنها صلة تفوق الرسم والرقص والغناء وسائر ما تهيئة الأجهزة الحديثة ، وتساءل : هل الإنسان هو تلك الأشياء التي يعايشها في حياته ، يلبسها ، يأكلها ، يشربها ، يستخدمها . قد يكون ذلك كذلك ، ولكن هناك أشياء أخرى غير مرئية ، وتفعل فعلها أكثر مما تفعله حياته اليومية ، إن النخلة بالنسبة له

ليست نباتاً وظلاً ومتكأ وتمراً ، إنها أشياء غير مرئية ، إنها تاريخ ، يذكر يوم أن لجأت إليها مريم تبتغي الستر والعون ، ويوم أن لجأ إلى ظلها موسى يبتغي الفرج ، ويذكر عشرات الحكايات التي قرأها في كتب الجاحظ وأبي علي القالي وأبي الفرج الأصفهاني ، عن هؤلاء الذين يتوهون في الصحراء ، ثم تبرز لهم من بعيد نخلة تمدهم بالظل والتمر ، وتمسك عليهم الحياة .

وأمعن في التساؤل وتذكر حديثاً آخر للرسول ﷺ ، يجعل النخلة هي مثال المسلم ، إنه لا ينطق عن الهوى ولا يكتفي بمجرد ضرب المثل ، بل لعله يعني شيئاً أبعد من ذلك ، لعله يعني أنها رمز المسلم ، أو قل هي "تراث" المسلم .

عدل الرجل من جلسته ، وسرح الطرف مع السعف التي تتراقص ، وأخذ يتساءل ولكن ما هو التراث ، إن الكلمة قد أصبحت ككرة اللبان ، يمضغها كل كاتب وصحفي حتى فقدت قوامها ، وأصبح التعرف على هويتها شيئاً صعب المنال ، هل التراث هو ذلك الشيء الذي نجده في بطون الكتب وأروقة المساجد ، إن الكتب والمتاحف والخزائن هي مجرد "دالات" على التراث وحافظات له أما التراث فهو شيء غير مرئي ، نتنفسه كالهواء ويتخللنا كالدماء ، إنه يذكر حين زار الأماكن المقدسة لأول مرة ، كان يتوق لرؤية جبل أحد ، ومسجد قباء ، وعرفات ومنى ، وزمزم ، إنها تعني أشياء كثيرة بالنسبة له ، يذكر في طفولته أن أقاربه كانوا يقولون له أيام العيد " على منى " ، وحين يتوضأ يقولون له " من زمزم " ، وحين يصلي يقولون له " حرماً " ، وحين زار تلك الأماكن التي كانت تعشش داخله ، لم يشاهد جبالاً شاهقة ، ولا أماكن مرتفعة ، ولكنه أخذ يتنسم الذكرى

في كل مكان ، وأصبح الهواء في مكة والمدينة وعرفات ومنى مشبعاً بأنفاس الصحابة والتابعين ، إنه تراث يتنفسه في الهواء ويتخلله حتى الدماء ، ليس حتماً أن يكون التراث أهرامات أو عجائب سبعاً ، قد يكون شيئاً اثيرياً تجريدياً ينتقل من الآباء والأحفاد عبر النطف والأصلاب ، إنه لا يعرف كم هو عمر تلك النخلة ولكنه يعرف أنها مثل الالآف ، تنتشر في المنطقة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، إنها ليست تفاحاً ولا برقوقاً ، ولكنها شيء فوق التفاح والبرقوق ، إنها بالنسبة له عمته ومثاله ورمزه .

وجاءه أبوه في منامه وشق صدره ، وانتزع علقة سوداء وألقاها بعيداً ، فاستيقظ خفيفاً وقد أذن القمر بالمغيب ، وخرجت القرضة والأرضة والفيران من محاجرها ، وانخرط يصلي ركعتي الصبح دون وطاء أو غطاء ، إنه لم يعد يخشى الهوام ولا الدواب ، الكل أصدقاؤه يعرف لغتهم ، ويسبح معهم لخالق السموات والأرض .

٨

هبت زوبعة في الصحراء ، حملت معها الغبار والتراب ، تطوحت النخلة وكادت تقتلع لولا جذورها الغائرة ، غاب القمر ، وعاثت الهوام ، وأصبحت الصحراء جحيماً لا يطاق .

أفاق الرجل من تأملاته ، دعك عينيه ، كان القمر بالأمس ورديا ، والنسيم عليلاً ، وكانت الذكريات جميلة عن التراث الذي يستنشقه في الهواء ، أما اليوم فقد تغير كل شيء ، إن دوام الحال من المحال ، وكل يوم هو في شأن ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، وتواردت عليه ذكريات من نوع جديد .

هل كل ما يحمله الهواء صالح للحياة ، وهل كل ما في التراث ينبغي أن يستنشقه الإنسان ؟

كان قد قرأ في كتب التاريخ عن حركات الزنادقة التي تكيد للإسلام باسم الإسلام ، وكان قد عرف أن الكثير من المذاهب الغريبة والوافدة قد تسربت إلى المسلمين وتزيت بزي الدين ، وكان يدرك أن كل ذلك قد تناهى إلى العامة ، فحسبوه من الدين ، واختلط في وجدانهم الزيف بالصحيح . وفهم أن هذا التراث الذي اختلط بعضه ببعض قد وقع تحت أيدي المستشرقين ، فحسبوه كله من الإسلام ، لم يريدوا أن ينقوه ، أو لم يستطيعوا ذلك حتى إن أرادوا ، كانوا قد تقولبوا بتلك القوالب التي تتخذ من وصف الظاهرة الخارجية منهجاً ، يحكمون من خلاله على الواقع ، دون أن ينقوا الزيف من الحقيقي والعرض من الجوهر ، إنه يذكر مثلاً ما قرأه لشبنجلر عن الحضارة الإسلامية إنه يصفها بأنها حضارة السحر ، التي تؤمن بالأرواح والجنيات ، وتعتقد في قوة السحر وخوارق العادات .

كان بالأمس قد أدرك أن كلمة " التراث " قد لاكتها الألسن ، حتى فقدت قوامها ، وأصبحت شيئاً هلامياً يصعب تحديده ، واليوم يدرك أن هذه الكلمة قد تعرضت لتداخلات كثيرة ، اختلط فيها الحابل بالنابل .

إن الأمر إذن يحتاج إلى بصيرة نافذة ، تخترق الحجب ، وتبين الأصيل من الدخيل .

إنه يذكر أن مُشركي قريش كانوا يتمسكون بسنة آبائهم ويزعمون أن هذا هو تراثهم الحقيقي ويذكر أن محمداً ﷺ قد استطاع أن يخترق الحجب وأن يكتشف زيف ما يصنعون ، لقد أدرك بنفاذ بصيرته أن التراث الحقيقي للمنطقة قدحجب ، وسمي مشركي قريش بالكفار ، وهي كلمة مشتقة من الكفر بمعنى الستر والتغطية ، إنهم قد حجبوا التراث الحقيقي بالعادات والتقاليد وغطوا الفطرة بالزيف ، وأدرك ﷺ أن التراث الحقيقي لأمته إنما يتمثل في الوحدانية ، وأن هذا التراث يضرب بجذوره إلى إبراهيم عليه السلام ، وقد حمله بعده إلى الجزيرة العربية ابنه اسماعيل ، وتلقاه منه الحنفاء ، الذين كانوا يتوارون وراء البيوت والدور ، يخشون قريشاً ، ويكتفون بالعزلة والتنسك ، أدرك ﷺ أن تراث إبراهيم موجود في الأعماق ، فقط عليه أن يزيح الشوائب والأستار ، فسوف يتألق دين إبراهيم من جديد .

ولكن محمداً ﷺ قد لحق بالرفيق الأعلى ، بعد أن أعلن في حسم أنه خاتم النبيين ، وأن الوحي قد انقطع بموته ، فمن ذا الذي يحمل الأمانة من بعده ، ويتصدى للتمييز بين الزيف والصحيح ، وتذكر تفسيراً لإقبال ، كان قد استراح إليه حين قرأه في كتابه " تجديد التفكير الديني " وأن مبدأ ختم النبوة ، فيما يذكر اقبال ، يعني انتهاء عصر الوحي والمعجزات ، وبداية عصر العقل وربط الأسباب بالمسببات ، لقد توقف الوحي بعد أن

أرسى المبادئ ، وكان توقفه استنفاراً للعقل لكي يواصل المسيرة على هدى تلك المبادئ ، وتذكر حينئذ قول النبي ﷺ "العلماء ورثة الأنبياء" ، وأدرك بوضوح وظيفة العلماء في الحضارة الإسلامية ، إنها لا تكتفي بمجرد اجترار المعلومات ، واختزان الذكريات ، إنها امتداد لوظيفة الأنبياء بعد انقطاع الوحي ، لا يهدءون ولا ينافقون ، يدخلون المعركة تلو المعركة ، حتى يستطيعوا أن يزيلوا الحجب والأستار الكثيفة ، وحتى يبرز الوجه الحقيقي للتراث ، نافضاً عنه التراب ، متطلعاً نحو الشرق .

وهدأت العاصفة في الخارج ، وهبت نسائم الشمال باردة فاترة ، وبدأت النخلة تعيد اتزانها من جديد ، وأخذت سعفها تتراقص في الفضاء.

٩

كانت الرياح محملة بحبوب اللقاح ، وزهور الحناء تبدو صفراء ناعمة تنبعث منها رائحة مغرية ، وكانت هناك نحلة تحوم حول تلك الزهور ، وتمتص رحيقها في نهم ، وتحيله إلى عصارة جديدة ، وانبعث منها طنين متواصل ، يبعث النشاط ويحث على الحركة .

كان قد استراح تماماً لفكرة اقبال عن خاتم النبوة ، وأدرك أنها دعوة للعلماء ، لكي يواصلوا الطريق ، ويحملوا رسالة الأنبياء ، وتذكر من جديد الحديث الشريف " العلماء ورثة الأنبياء " ، وأحس بالمسئولية كما لم يحسها من قبل ، كان الرسول ﷺ يؤنسه الوحي ، ويمده بالمشورة كلما حزبه أمر ، أما العلماء فعليهم أن يواصلوا الطريق دون وحي ، ولم يدر لماذا أخذ يتلو الآية الكريمة ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا**﴾ ، وأحس بالإشفاق ، ولكنه في الوقت نفسه أحس بأن على الإنسان أن يعي قدره ، فتلك هي الخطوة الحقيقية لمواصلة الطريق .

وعاود التفكير من جديد في قضية السحر ، وهبط عليه شيء كأنه الوحي ، وإذا به يدرك أن قضية السحر في الحضارة الإسلامية ، تدل على سعة أفق تلك الحضارة واستعدادها لتقبل الطارىء والجديد ، إنها تريد أن تخلص العقل من أسر القوالب العقلية التي يؤمن بها إيماناً مطلقاً فيألفها ويقع في وهمها ويستريح إلى الكسل ، ويصاب بالجمود ، إن المقولات العقليه تبدو مطلقة وغير قابلة للاعتراض ، وإذا حدث حوار حولها في فترة ما ، واجهه أصحاب العقل بالنفور ، إن فكرة الإيمان بخرق العادة تحت أي مسمى في الحضارة الإسلامية ، تعني تخليص العقل من وهم العادة ، إنها تريد أن تحوله إلى آلة حادة ، تلتقط الغريب ، وتقبل الخارق ، إنها بذلك تقف مع التطور ولا تقف ضد التطور .

وفهم لماذا لم يؤمن المعتزلة بالسحر ، بينما آمن به أهل السنة ، إن المعتزلة يمثلون أصحاب المقولات العقلية ، يجمدون عند تلك المقولات ، ويحاربون كل من يشك فيها ، أما أهل السنة فهم يفتحون الباب أمام احتمالات جديدة ، وإمكانات المستقبل ، وافترض لو أن المعتزلة ووجهوا بإمكانية الكثير من المخترعات الحديثة ، لعارضوا ذلك بشدة فهي أشياء غير معقولة ، تخرق العادة ، وتخالف المألوف ، أما أهل السنة فقد يقولون باحتمال ذلك ، فكل شيء بأمر الله ، الذي يستطيع أن يوجد الأسباب بدون مسببات ، وأن يجمع بين المتناقضات متى ما أراد .

حينئذ أدرك الأمور بوضوح ، فقضية السحر في الحضارة الإسلامية ليست قضية إيمان بالأرواح والجنيات ، إنها قضية المؤمن المستنير ، الذي يريد أن يدع العقل في حالة استنفار ، لتقبل الغرائب والمخترعات والجديد .

وأخذ يقرأ آيات السحر في القرآن الكريم من جديد ، إنها لا تحمل ثقافة الإنسان الأول ، الذي يخشى الظواهر الطبيعية ، ويفترض فيها قوى خفية ، ولكنها تحمل قوة الإنسان المسلم ، الذي يواجه الواقع ، ويوجهه لمصلحته ، فالسحر موجود ولكن السحرة لا يستطيعون أن يضروا أحداً إلا بإذن الله **﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾** ، والسحر يعتقد به الناس ، ولكنه في نظر القرآن يمثل الزيف والخداع ، الذي لا يستطيع أن يصمد أمام الحقيقة والنور ، إن السحرة لم يستطيعوا أن يقفوا أمام عصا موسى فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وظل يفكر ويفكر ، ويفصل بين أمر وأمر ، حتى لاح خلف النخلة عمود من نور ، كان النور قوياً وملحاً ، أخذ يطارد غبش الفجر الكاذب ، وتناهى إليه من بعيد صوت ديك يهلل للنور الجديد ، فحمد الله وقام يغتسل للصلاة .

١٠

ردد بالأمس دون أن يشعر قول الله تعالى ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ ، كان المقام عصيباً ، الرياح تهب ، الغبار يدمي العيون ، النخلة تفقد توازنها وتكاد تلتصق بالأرض ، فأخذ لسانه دون أن يشعر يردد هذه الآية الكريمة .

وواتته فكرة لمعت داخله كالشرر المتطاير ، لقد وجد نفسه وقت الأزمة يبحث عن شيء ثابت يتعلق به ، شيء يلعب دور خشبة الانقاذ ، فيحميه من الضياع والغرق ، وتوالت الأفكار ، وأدرك أن التراث يمثل "الثوابت" التي تحمي الأمة من الضياع ، وأدرك لماذا يزداد التشبث بالتراث وقت الأزمات .

وراقته فكرة الثوابت وأمعن فيها النظر ، وجدها تحمل خصوصية الحضارة ، فبدون ثوابت تصبح الحضارة شيئاً هلامياً لا معنى له ، الحضارة ، أية حضارة ، لا تستحق هذا الاسم إلا إذا كانت تحمل في داخلها بعض " الجينات " التي تميزها ، وتعطيها طابعاً خاصاً يظهر في أفكارها وفنها وموقفها من الحياة والكون .

وأدرك أن الثوابت في الوقت نفسه دعوة مفتوحة وتغري بالاجتهاد ، هناك ثوابت هذا حق ومطلوب ، وهناك اجتهاد فيما وراء الثوابت ، هناك قدر يمثل " القالب " الذي تقدمه الحضارة ، وهناك قدر آخر يصنعه الأفراد لتشكيل هذا القالب ، وتذكر حينئذ رأياً لإقبال كان قد ذكره في كتابه "جاويد نامه" ، إنه يرى أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، لا لأنه يقدم قوالب مطلقة وعامة ، بل لأنه يقدم قوالب متطورة ، تخضع للاجتهاد ، ولا تتعارض مع فطرة الإنسان ، وتبقى ما بقي التركيب البشري ، الذي يحمل في داخله الخير والشر معاً .

وتواردت عليه الأفكار ، إن فكرة الثوابت بهذا المعنى المزدوج ، الذي يحمل القالب وتشكيله ، يحمل الخصوصية والتغيير ، يحمل القاعدة والاجتهاد ، إن هذه الفكرة تضرب بجذور عميقة في الثقافة الإسلامية ، تذكر أن علماء التفسير يذكرون أن القرآن الكريم قد جاء عاماً يحتاج إلى تخصيص ، ومطلقاً يحتاج إلى تقييد ، وتذكر أن علماء السنة يقسمونها إلى سنة تشريعية تهدف إلى تقديم الحكم الشرعي ، وإلى سنة غير تشريعية جاءت من باب الأمور الدنيوية ، وأن الرسول ﷺ حينما قال لأصحابه في قصة تأبير النخل " أنتم أعلم بأمور دنياكم " ، إنما كان يوجههم إلى الاجتهاد في غير الأمور التشريعية ، وتذكر أن علماء الأصول يتحدثون عن أحكام قطعية لا تقبل الاجتهاد ، وأحكام وراء ذلك تستجيب للاجتهاد .

أخذت النخلة تتمايل بشدة ، وتتطوح يميناً وشمالاً ، ولكنه كان مطمئناً ، لا يخشى عليها أن تقتلع فقد قرأ في القرآن الكريم أن أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وعرف من العلماء أن جذورها تغوص في التربة أكثر من متر ونصف بحثاً عن الماء .

١١

كانت الجبال حوله كالحة ، وعلى ربوة قريبة ربض ريم لا يتحرك ، وفجأة انطلق نحو الريم نصل سهم فأرداه قتيلاً ، لم يعرف مصدره ، ولكنه لم يعجب له ، فقد كان يتوقعه ، ثارت الرياح ولطمت وجهه .

تذكر أبياتاً كثيرة من الشعر الجاهلي ، كلها تتوارد حول هذا المعنى ، شيء كالسهم أو كالقدر الأعمى ، ينطلق نحو حيوان أو إنسان غافل فيرديه قتيلاً ، يموت الحيوان كالكلب دون أن يفقه شيئاً ، يقول ذلك امرؤ القيس عن هذا القطيع الذي يبدو آمناً كعذارى دوار ، وفجأة يداهمه الصائد فينتشر كالعقد الممزق ، ويقوله لبيد عن البقرة الوحشية التي تبحث عن ابنها وفجأة يروعها رز الأنيس عن ظهر غيب ، ويقوله الحارث بن حلزة عن النعامة التي يفزعها القناص عصراً وقد دنا الامساء .

وبدا له أنه يفهم صورة السيل عند امرىء القيس وغيره من شعراء العصر الجاهلي بطريقة أخرى ، إنه ليس صورة لسيل عادي ، وليس وصفاً تقريرياً لطبيعة هائجة ، بل يكاد يكون رمزاً لقدر أعمى باطش ، يتحرك في طريقه دون غاية ، يقتلع الأشجار ، ويدحرج الأحجار ، ويلطم الوجوه .

واستحضر أيضاً دون أن يتوقع نهاية رواية كان قد قرأها منذ مدة طويلة لكافكا ، لعلها رواية "القضية" التي تنتهي في جو غامض ، ريح عابثة ، وأضواء غامضة ، والنوافذ تصطفق ، وفجأة يندفع سهم نحو البطل ، فيرديه قتيلاً وهو يصيح كالكلب .

وتساءل إذا كان ليل الجاهلية يحمل في تضاعيفه تباشير صباح جديد ، فهل يحمل ليل كافكا وغيره من كتاب العبث إرهاصا بفجر جديد ، أو أن الليل لا يزال طويلاً .

عندئذ نعق صوت غراب فوق النخلة ، وهبت ريح عاتية ، وتسللت إلى عينه قشة حادة ، فأصابتها بالاحمرار وجعلته يفور .

١٢

كانت هناك حمامة بيضاء تتجه نحو المشرق ، كانت تعرف طريقها لا تلتفت يمنة ولا يسرة ، وارتفع صوت المؤذن " الله أكبر " ، وتناهى إلى سمعه صوت الالآف من جند الله ، يضعون السيوف ، ويريقون المياه على أيديهم وأرجلهم ، استعداداً للصلاة ، كان خرير المياه يختلط مع قعقعة السيوف ، فيشكلان موسيقى صافية ، تترامى في أجواز الصحراء الفسيحة الممتدة .

وصاح حقاً إنها معجزة ، وتذكر السهم الغامض ، ورثى لتلك النعامة المسكينة التي جاءها قدرها من حيث لا تحتسب ، وأنشد من حديد أشعار امرىء القيس ولبيد وابن حلزة ، وتنهد : مساكين هؤلاء ، لقد عاشوا وماتوا كالكلاب الضالة ، كانوا ضحية قدر باطش لم يفهموه ولم يتجاوزوه .

واستحضر صورة الفرسان في العصر الجاهلي ، حقاً كانوا شجعان وأقوياء ، يواجهون الخطر ، يدخلون في معارك مع الطبيعة ، وينتصرون على الوحش وحيوانات الصحراء ، ويفتخرون أمام الحبيبة ببطولاتهم وفروسيتهم ، ولكنهم افتقدوا الغاية ، كان السهم الغامض يهددهم ، فوقعوا فريسة الخمر والنساء ، وتحرك لسانه بشعر لطرفة .

فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي

أتلك هي غاية الحياة عند طرفة وأمثاله من فرسان العصر الجاهلي ، أن يعيش من أجل الخمر والقتال والنساء .

وصاح من جديد : حقاً إنها معجزة ، كان لا يزال صوت المؤذن وخرير المياه وقعقعة السيوف تتناثر في رحبات الصحراء الممتدة ، لقد تبدل كل

شيء ، واختفى السهم الغامض ، وعرف الفرسان طريقهم ، إنهم ينطلقون في مشارق الأرض ومغاربها ، ليس بحثاً عن نعامة شاردة ، وليس حباً في أن يفخروا ببطولاتهم أمام الحبيبة ، ولكنهم انطلقوا وراء " الله أكبر " يرددونها في كل مكان ، لقد أصبح لهم هدف وغاية ، حقاً هم يؤمنون بالقدر ، ولكنه ليس قدراً أعمى كالسهم الطائش ، إنه قدر منضبط ، محكوم بسنة الله التي لا تتبدل ، حقاً قد تخفي حكمة تلك السنة على بعض العقول القاصرة ، ولكنها أبداً لن تكون طائشة ، وتفهم حسرة رستم حين وجد المسلمين يصطفون للصلاة ، فصاح " أكل عمر كبدي إنما يعلم الكلاب الآداب " ، لقد أدرك هذا القائد موطن القوة ، وعرف أن عصر الضبط والربط قد بدأ .

وتحرك لسانه دون أن يشعر بآيات من القرآن الكريم ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ .

وأدرك المغزى الحقيقي وراء هذه الآيات ، إنها لا تقلل من قيمة الشعر والفن كما فهم بعض السذج ، بل إنها تقف ضد نوع من الفن المتخاذل ، يجدف في كل واد ، ولا يلتزم بالقيم الإنسانية ، ولا يدافع عن مضمون الكلمة ، أما ما عدا ذلك فإن سورة الشعراء تستثني الفن الملتزم الذي يتعانق فيه القول والفعل ، ويناضل فيه الإنسان من أجل قضيته .

ولم يطل به التفكير كثيراً هذه المرة ، إنه لم يعد يستعذب الجلسات الطويلة ، يقلب فيها الأفكار ، يفككها ثم يركبها ، وتساقطت عليه من النخلة ثمرة شهية ، فالتقطها ونهض يسعى في الأرض .

١٣

رأى قرية من بعيد ، تقف على قمة جبل متطرف ، كأنها معلقة بين السماء والأرض .

كانت هناك أشجار غريبة تحيط بالقرية ، تصدر منها رائحة مثملة ، وعليها فاكهة ناعمة الملمس ، كانت هناك بضع نخلات تطن طنيناً يخدر الأعصاب ، ومجموعة من الحمائم تسكن فوق الأغصان ، وتستحم في أشعة الشمس الدافئة ، وتخفي رءوسها بين الزغب الناعم في لذة سرمدية .

وهناك رهط يستحمون في برك حول الأشجار ، عرايا يشربون حتى الثمالة ويتبادلون الحديث حول النساء والطعام وأوز البحيرة ، لا يبالون بشيء سوى أن يستحموا في البرك ، ثم يتحادثون ، ويتحادثون .

تفرس فيهم فعرف أنهم شياطين الشعر ، وأدرك أنه في قرية من قرى الجان التي تنتشر فوق أطراف الجبال .

تعرف من بينهم على فتى جميل ممتشق القوام ، يلبس الألوان الزاهية ، ويضع فوق رأسه قلنسوة مزينة بريش الطيور ، كان يمضغ لبانة ، ويعب من كأس ويصيح " اليوم خمر وغداً أمر " فعرف في الحال أنه شيطان امرىء القيس .

تذكر مشهداً كان قد قرأه في مسرحية " مجنون ليلى " لأحمد شوقي ، تحدى شيطان قيس صاحبه إن كان يستطيع أن ينطق الشعر دون مساعدته ، لم يستطع الشاعر ، وتحول إلى عُيي يكاد لا يبين .

عند هذا الحد صاح : مساكين هؤلاء الشعراء ، لا يصدرون عن أنفسهم ، هم خدم للشياطين والجان ، يلقون إليهم زخرف القول غروراً .

وأدرك أن شعراء الجاهلية قد فقدوا اليقين الداخلي ، يصغون لشياطين

الشعر ، يهيمون وراءهم في كل واد ، يقولون مالا يفعلون أوما الشياطين عليهم يملون . .

وعرف السبب الذي جعل جنة أبي العلاء تخلو من الشعراء ، كانوا يأتون حارس الجنة ، وينشدونه شعر المديح لكي يسمح لهم بالدخول ، فيأبى عليهم ذلك لأن جنة الآخرة لمن يستحقها ، لمن يحيل القول إلى عمل ، والكلمة إلى رصيد ، ولحظة الإبداع إلى حياة .

وأدرك أن الفن بلا عمل هو نوع من الخداع ، وأن الشعر بلا يقين هو من وحي الشياطين .

كان قد تحادث مرة مع صديقه عن السحر ، وأنه زيف لا يقف أمام عصى موسى ، واليوم يعرف أن الشعر إذا خلا من اليقين إنما هو نوع من السحر ، ولا يدري لماذا تذكر الحديث الشريف " إن من البيان لسحرا " ، ولماذا يحس إزاءه بمعنى جديد لم يخطر له من قبل .

وأدرك تماماً مأساة الواقع العربي ، إنه يعيش في سحر الكلمة ، أزفت الآزفة ، واحتلت فلسطين ، وهدم المسجد الأقصى ، وعاثت في الأرض القردة والخنازير ، ولا شيء سوى الشعر ، وكأنه المادة المخدرة يتسلى بها عن الحقيقة ، ويتحصن بها ضد الواقع .

تمنى لو خلت مدينته من هؤلاء الشعراء ، تمنى لو رأى مدينته فاضلة مثل مدينة أفلاطون ، طرد منها الشعراء ، أو جعلهم يعيشون في زاوية قصية .

عند هذا الحد رأى شهاباً رصداً ، ينقض على قرية الجان فيحرقها ، ورأى الشعراء يتطايرون من كل جانب .

تمنى في سريرته شهاباً كهذا ، أو قل عاصفة ، تنقض على قرى الجان ، التي تنتشر الآن في أرجاء العالم العربي .

١٤

هبت نيران عاتية ، التهمت كل قرى الجان ، وانطلقت الشياطين إلى كل جانب ، وذيولها تشتعل بالنيران .

في غار حراء هبط جبريل إلى الأمين ، وغطه إلى صدره ثم أرسله ، وأمره أن يقرأ باسم ربه .

تجلت الحقيقة ، وتكشف السحر ، وتخرصت الألسن ، واختفت الشياطين .

توحدت الكلمة والفعل ، وحدثت المعجزة ، وتحول كل مسلم إلى شاعر يقول ويفعل ، يعيش لحظة الإبداع ثم لا يتركها وراءه ظهريا ، بل يظل يصنع قصيدة في كل لحظة من لحظات حياته .

أدرك حينئذ أن الفن إذا التحم باليقين تحول إلى رسالة .

وسمع صرير أبواب الجنة تفتح لهؤلاء الشعراء ، وأحس أن مدينة فاضلة قد أخذت تتحقق .

١٥

لم تعد الجبال أمام عينيه كالحة متجهمة ، لقد تبدلت ، كان صوت الشيخ محمد رفعت يتردد في جنباتها وهو يتلو ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾ ، لم يكن صوتاً بشرياً ، بل كان صوتاً ملائكياً يذيب الأحجار ، يجعلها تتشقق ، وتتفجر بالمياه ، وتهبط من خشية الله ، يحرك الجبال الجامدة ويجعلها تمر مر السحاب ، وتذكر وقت أن تجلى الله على الجبل ، وخر موسى صعقاً .

وأدرك بوضوح معجزة القرآن الكريم ، إنه لم يقف عند المظهر الخارجي للصحراء ، الجبال الكالحة ، والرمال الساخنة ، والسحن المغبرة ، لقد أدرك الوجه الآخر للصحراء : نسيم الصبا ، خشوع الجبال ، تسبيح الوحوش ، رائحة النبات .

وأخذ يتلو القرآن الكريم ، ونزل على قلبه برداً وسلاماً ، وفاضت عينه بالدمع ، وتواردت على لسانه آيات من سور مختلفة ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ ، ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ ، ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾ ، ﴿**ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته**﴾ .

وأحس بشعور لا يستطيع وصفه بالضبط ، لقد كان بالأمس مهتاجاً تسللت إلى عينه قشة حادة ، فأصابتها بالاحمرار وجعلته يفور ، والآن وعقب قراءته لهذه الآيات فإن قلبه مفعم بالرضا ، لعله شفاء الصدور الذي يتحدث عنه القرآن الكريم ، وتذكر كلاماً كان قد قرأه لابن الجوزية عن السكينة ، وأنها تنزل وقت الشدة والمحنة ، فقال لعلها السكينة أيضاً .

وأدرك أنه شيء لا يستطاع تحديده ، يند عن الاسم والتعريف ، ولكن يحس به كل قارىء للقرآن الكريم ، حتى لو لم يفهم معناه ، إنه يحس بهذا الشيء يتسلل إلى قلبه ، فيدرك أنه إزاء كلام لا يتكون من لغة وحروف مرصوصة ، بل من شيء كالماء أو الروح يسري خلال تلك اللغة والحروف ، وتذكر كلاماً كان قد قرأه لمسيلمة الكذاب يقول فيه " ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى " ، إن الرجل يجتهد وسعه في أن يجاري القرآن الكريم ، نفس اللغة والحروف والمعاني والفواصل وتقسيم الجملة ، ولكنها تبدو خالية من الروح تثير السخرية والضحك ، ينقصها ذلك الشيء الذي لا يستطيع أن يضع له اسما ، وتذكر تعليقاً لابي بكر الصديق حين سمع كلام مسيلمة "ويحكم إن هذا لا يصدر عن آل" ، وصاح : لقد وجدت الاسم ، إنها روح القدس التي افتقدها أبو بكر رضي الله عنه في هذا الكلام ، وعرف لماذا أطلق الناس على مسيلمة صفة الكذاب .

وهبطت على عينه حبيبات من برد ، كأنها المن والسلوى ، فأزالت احمرارها ، ونظر نحو هلال جديد ، يبزغ في الأفق القريب ، ففاضت نفسه باليقين .

١٦

كان هناك هدهد ينقب في الأرض ، بدت خطوطه الحمراء والبيضاء زاهية لامعة ، وتفتحت أكمام النخلة ، وبدا منها بسر أحمر وأصفر ، يختلط باللون الأخضر .

وتفتحت نفسه بالبهجة والجمال ، وتوالت على خواطره آيات من القرآن الكريم ، تظهر الطبيعة وكأنها في مهرجان ، فالسماء مرصعة بالكواكب زينة للناظرين ، والأرض فيها من كل زوج بهيج ، وأخذ يتلو **﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين ﴾ ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾ ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ﴾ ﴿ فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ﴾** .

لم يعد يرى السماء رصاصية ثقيلة خرساء ، كما كان يقرأ في الروايات المصرية والمترجمة ، بل أصبح يطالع فيها دنيا بهيجة ، مزينة بالكواكب والمصابيح ، أصبح يراها وردة كالدهان ، تلتمع بمختلف الألوان .

وتذكر كلاماً لجيته أورده في ديوانه الشرقي عن القرآن الكريم :

رأيت بدهشة وابتهاج
ريشة طاووس بين صفحات القرآن
مرحباً بك في هذا المكان المقدس
أغلى كنز بين بدائع الأرض

وأخذ يكمل قصيدة جيته التي تتحدث عن صور البهجة في القرآن الكريم ، وتمتم : قد يدرك الغريب ما لا يدركه القريب ، فالألفة حجاب قد تحول دون كشف الأسرار ، إلا من هداه الله .

وجاشت نفسه ، وأخذ يتلو سورة الرحمن ، يتنقل بين اللؤلؤ ، المرجان ، والنخل ذات الأكمام والحب ذي العصف والريحان ، والحور الحسان ، والوردة التي كالدهان ، وجنى الجنتين دان ، وأخذ يهز الرأس كلما يكرر ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

وواصل القراءة ، أصبحت الآيات في نهاية السورة تتحدث عن الجنات ، آيات قصيرة ، وفواصل سريعة ، وأخذت التكرارات تتوالى ، والايقاع يرتفع ، والانفاس تلهث ، والرءوس تهتز ، ويروح ويجيء ، وهو يردد بلا انقطاع ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ ، وما زال يردد ويكرر حتى غامت الرؤية وغاب في نشوة صوفية .

وتنبه من غفوته ووجد لسانه لا يزال يتحرك بالآية الأخيرة ﴿ **تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام** ﴾ ، وهبط عليه شيء كالبرد ، ووجد نفسه ترتفع فوق كل الخلافات ، وأدرك حقيقة وهي أن الجواس يمكن أن تقود إلى الأعلى ، وأن تفتح طاقات إلى السماء ، إن سورة الرحمن تقدم أوصافاً حسية للجنتين ، ولكن هذه الأوصاف ترق وتشف ، ويحيطها جو

من نسائم الرحمن ، حتى تجعل المرء يغيب في نشوة صوفية ، وتمتم : حقاً ، إن سورة الرحمن هي عروس القرآن ، كما يقول المفسرون ، ولكنها في الوقت نفسه سياحة صوفية ، جربها بنفسه وهو يكرر ويعيد ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾.

وتوصل إلى يقين من وظيفة الحواس في العملية الفنية ، إنها وظيفة متكاملة ، تبدأ من الحواس وترتفع بها إلى جو من الجمال ، دون أن يغيب الأمران ، ورثى لهؤلاء الأدباء الذين يقفون عند الوظيفة الحسية لا يغادرونها ، ورثى أكثر لهؤلاء الذين يتحدثون عن صوفية " لورانس " ، فقد أدرك بعد أن عاد من سياحته أنها صوفية لا تختلف عن الهزة الجنسية ، وأنها لا تختلف أيضاً عن غيبوبة العقاقير والشراب ، إن وظيفة الأدب المكشوف حتى في أحسن صوره عند لورانس ، هو تفخيم الوظيفة الدنيا للحواس ، فتبدو اللذه وكأنها لذتان ، أما الوظيفة العليا فلها شأن أي شأن ، ﴿ **فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

ورفع عينيه إلى النخلة ، كانت لا تزال تتمايس بسباطها الجميلة ، وحولها ألوان من قوس قزح يشق عنان السماء ، كان هناك هلال وليد يبزغ في الأفق ، وتذكر تهليل الرسول ﷺ وفرحته حين كان يرى الهلال الجديد ، وأخذ يردد الحديث الشريف : " حبب إلي من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة " . ولم يجد غرابة في أن يجمع الرسول ﷺ بين النساء والصلاة . فقام يتخلص من غدة الشيطان ، ثم اغتسل واستقبل الصلاة بقلب سليم .

١٧

سحب تركض في السماء ، تبسط تحتها ظلالاً سوداء ، تتحرك هذه الظلال فوق الرمال البيضاء ، كأنها الوعول المنقطة ، انبثقت مجموعة من الخيل تتدافع وتتداخل ﴿ **والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا** ﴾ .

وتذكر قصة كان قد ترجمها لجريليه ، تحت عنوان " الطريق الخاطىء " .

إن جريليه هنا يرصد بحياد حركة الضوء والظلال فوق البركة والأشجار ، ويشبهها بلوحة الشطرنج ، دون أن يعلق أو يحمل الطبيعة قيمة إنسانية ، حتى الرجل الذي يظهر فجأة " يلقي نظرة باردة ، ثم يعود فقد اكتشف أن الطريق خاطىء " .

أما حركة الخيول أول سورة العاديات ، فإنه يحسها متحركة هادفة متطلعة للمستقبل ، إنها ليست مجرد قسم بأشياء نافعة ومحبوبه كما يقول النحاة ، إنها تحمل الاستنفار ، إنها تتطلع للمستقبل وقد امتطى المجاهدون خيولهم يبشرون بكلمة الله ويغيرون على الأعداء ، إن الخيول هنا ليست مجرد خيول ، بل هي خيول المستقبل والعزم والتصميم ، تقدح الشرر ، وتثير النقع ، وتصبح الأعداء .

وأدرك الفرق بين حركة وحركة .

حركة خاوية كقطع الشطرنج عند جريليه تنتهي به إلى العبث ، أو كحبل نيتشه المتوتر ينتهي به إلى الانتحار .

وحركة هادفة ، تبشر بالعقيدة ، وتثير العزم والتصميم والتطلع .

ذلك هو رقص الروح ، وهذا هو الرقص على سطح من الصفيح الساخن .

ونذكر أن " رقص الروح " إنما هو تعبير كان قد قرأه لإقبال في رسالة الخلود ، يوصي به ابنه ويراه سر دين المصطفى .

وتذكر أيضاً أن " الرقص على سطح من الصفيح الساخن " إنما هو عنوان لفيلم أمريكي كان قد رأى إعلانه على الحوائط ، وتبدو فيه ممثلة شبه عارية ، تتلوى كالقطة ، وتخلو عيناها من التعبير .

وأدرك لماذا انتهت الجملة عند اقبال بقيام دولة واحتضان حضارة . ولماذا أنهت صاحبة الفيلم حياتها بالانتحار .

ثم صاح : كم نحن في حاجة إلى رقص الروح .

تطلع نحو الأفق ، كانت السحب لا تزال تركض ، ولكنها كانت بعيدة ، لم ير منها سوى الظلال تتحرك فوق الرمال البيضاء ، كحية رقطاء.

ولكن فجأة داهمته صورة الخيول من جديد ، وهي تعدو ، تضرب الأرض ، تقدح الشر ، تثير النقع ، تهاجم الأعداء ، تدوس الحية الرقطاء .

عندئذ أحس بالخفة ، ثم ارتفع إلى السماء ، يركض مع السحاب ، يستعجل الصباح .

١٨

كانت النار من بعيد تبدو متوهجة ، تتصاعد ألسنتها في أجواء السماء ، فتبدد وحشة الصحراء .

تذكر قصة موسى عليه السلام ، كان قوياً يصفع ويبطش ويقتل وكان ضالاً تائهاً في الصحراء ، حتى بدت له من بعيد نار ، فيمم نحوها يلتمس الدفء أو الهدى .

عندئذ صهرته تلك النار، وبدلت عنفه إلى ثبات ، وقلقه إلى يقين ، وانزعاجه إلى سكينة .

وتذكر قصة عمر رضي الله عنه ، كان غاضباً مهتاجاً ، فقد سمع لتوه أن أخته قد أسلمت وأنها في دارها تقرأ القرآن مع زوجها ، فتوجه نحوهما . صفع الزوج ، وعنف الأخت ، ثم أخذ المصحف ففتحه فكانت أمامه سورة طه ، فجعل يقرأ ﴿ **وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً . فقال لأهله امكثوا . إني آنست ناراً . لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودي يا موسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى** ﴾ .

عندئذ صهرته تلك النار ، وحولت عنفه إلى سكينة ، وغيظه إلى رقة ، وكفره إلى إسلام .

وتساءل : مست النار المقدسة موسى عليه السلام ، فوقف أمام فرعون ثابتاً ، لا يخشى صولته ولا جولته .

ومست تلك النار عمر رضي الله عنه ، فجابه المشركين : من أراد أن تثكله أمه ، فليتبعني وراء هذا الوادي .

ثم تحرك من مكانه وهو يقول : من لي بمثل تلك النار .

سورة الضحى مكية وآياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

٢٠

كلما يقرأ سورة الضحى يحس باليقين ، كأنه ذلك الرجل الذي قد ضل طريقه في صحراء قاحلة ، اشتد عليه الغيظ ، واشتعلت تحته الرمال ، وكاد يموت ، لولا أن تساقطت عليه حبات برد من السماء فأنعشته .

واستحضر صورة النبي ﷺ ، انقطع عنه الوحي فترة ، فقلق عليه السلام وكان ينظر كل حين إلى السماء ، ينتظر الوحي ، حتى نزلت عليه هذه السورة ، فجددت عنده الأمل .

كلما يقرأ هذه السورة يحس بأنه يرتفع إلى السماء ، وأن قلبه قد اتسع لحب العالمين ، فلا حقد ولا حسد ولا بغضاء .

وكلما يقرأ هذه السورة يحس بالنشوة والانتصار ، لم يعد يأبه بالعقبات فإنها ستصهره ، ولم يعد يخشى المحن فإنها ستصقل قلبه ، وتستخرج أنقى ما فيه .

وكلما يقرأ هذه السورة يحس بالنعاس الذي غشى المسلمين في إحدى غزواتهم فجدد نشاطهم ، وبالمطر الذي هطل عليهم فطهرهم ، وبالملائكة التي كانت بينهم فأمدتهم بالنصر .

وكلما يقرأ هذه السورة يحس بيد أمه تربت عليه عقب حلم مزعج ، وبيسمة والده عقب نجاح العملية .

كلما يقرأ هذه السورة ، يستحضر ضوء الضحى ، يفترش طرقات القرية كالحليب المسكوب ، ليس هو نوراً يغمر الأبصار ، وليس هو ظلمة تغشى العيون .

كلما يقرأ هذه السورة يحس بنسمات تهب في يوم قائظ وتولد في نفسه حالة جديدة ، وبحبات من البرد تسقط في يوم حار فتولد حالة جديدة ،

وبصباح يشرق اثر كوابيس الليل فيولد حالة جديدة ، وبانتصار عقب هزيمة فيولد حالة جديدة .

وحاول أن يجد اسما دقيقاً لهذه الحالة الجديدة ففشل ، ولكنه تذكر كلاماً لابن الجوزية عن السكينة التي تهبط على القلوب في مواضيع القلق والاضطراب ، كيوم الهجرة إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رءوسهم.

حينئذ صاح : لعلها السكينة .

كان طائره لا يزال يملي ، يتحرك جناحاه حركة غير ملموسة ، ورأسه تقف بينهما في ثبات كقائمة الميزان .

٢١

كان الوقت ضحى والضوء لا هو غامر باهر ، ولا هو خافت باهت .

ظهر الطائر في منتصف السماء ، طالت أرجله حتى انغرزت في الأرض ، وارتفعت رأسه حتى جاوزت السحاب .

خلق سود قد تزاحموا على الجناح الشرقي فبدا أسود ، وخلق بيض تعلقوا بالجناح الغربي فبدا أبيض .

كان المنظر بديعاً والطائر يحرك جناحه الأسود يتجاور مع الأبيض كما الليل والنهار في وقت واحد ، من عجيب لم يحس أن في الأمر تضاداً ، بل بالعكس أحس أن اللوحة قد تكاملت .

وتذكر على الفور صورة الملك الذي التقى به النبي ﷺ ليلة معراجه كان نصفه من ثلج ونصفه الآخر من نار ، لا الثلج يطفىء النار ولا النار تذيب الثلج .

نظر خلف الطائر ، فوجد صحراء شاسعة ، كانت هناك نخلة تقف وسط الصحراء ، الوقت حار وظل النخلة يفترش الصحراء ، ويتحرك فوق الرمال البيضاء ، أحس بإحساسين في وقت واحد ، الجمال والجلال ، الخوف والأمن ، ولكنه لم يشعر بالتناقض .

كان الموقف أكبر مما يستطيع أن يعبر عنه ، تمنى في تلك اللحظة أن يكون فناناً تشكيلياً يستطيع أن يرسم لوحه يتجاور فيها الأبيض والأسود ، الليل والنهار ، الظل والضوء ، دون أن يحس المشاهد أن في الأمر تناقضاً أو تضاداً أو شيئاً من الغرابة .

أنقذه من حيرته آيات من سورة آل عمران ﴿ **تولج الليل في النهار ، وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾ .

أحس باليقين ، وعرف أن إعجاز القرآن يكمن أيضاً في التعبير عن روح المكان .

٢٢

دنا منه الطـائر كثـيراً ، غطـه إلى صـدره ثـم أرسـله ، ألقـى إليـه ببعـض الألغــاز ، يختبر بها حسن حظه وعاقبة أمره .

٢٣

اللغز الأول

شيء برأسين ، ويرفرف في الجانبين ، ويحوز الحسنيين .

٢٤

تذكر على الفور صورة المؤمن ، كما وردت في حديث نبوي ، ينظر بأربع أعين ، عينين في قلبه يبصر بهما أمر دينه ، وعينين في رأسه ينظر بهما أمر دنياه .

وتذكر أيضاً صورة النخلة ، تجمع بين السماء والأرض ، وردد التعبير القرآني ﴿ **أصلها ثابت وفرعها في السماء** ﴾ .

وحمد الله على أن وفقه في كتاب " الوسطية العربية " ، وجعله يتخذ من النخلة رمزاً لتلك الطبيعة التي تجمع بين الأمرين .

وردد الحديث النبوي " نعمت العمة لكم النخلة " ، وأدرك أن الأمر لا يقف عند مجرد صورة بيانية ، بقدر ما هو يضرب إلى حقيقة جوهرية .

حينئذ عزم على أن يكون صورة من النخلة ، جذورها غائرة في التربة ، وفروعها تتراقص مع تيارات الهواء . وبدأ اللغز يتكشف داخله .

٢٥

اللغز الثاني

العبرة في النهاية بالعصارة ، دونما نظر إلى النشارة .

٢٦

توارد إلى ذهنه كلام لابن الجوزيه عن الوسطية ، يراها تتبع الحق فتأخذه ولو كان عند الفرق الضالة .

وتذكر التعبير النبوي عن أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى كانت .

حينئذ عزم على أن يكون قوياً ، لا يخشى التيارات المعادية ، ولا يقف منها موقف التوجس ، سيحاورها ويلتقط أفضل ما عندها ، فالعبرة بالنهاية . وأخذ اللغز يتضح داخله .

٢٧

اللغز الثالث

هو حاكم ومحكوم ، ولكل منهما مقام معلوم ، لا يتجاوز ما هو مرسوم .

٢٨

تحرك لسانه بالآية الكريمة ﴿ **وهو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا** ﴾ .

وأحس أن في داخله بحرين يتعايشان ، ملك وشيطان ، خير وشر ، شهوة وحكمة ، فسأل الله وضوح الرؤية .

وتذكر من جديد صورة الميزان ، كان قد اتخذه رمزاً في كتابه " الوسطية العربية " ، يعادل به بين التيارات المختلفة والمتضاربة .

عزم على أن يكون في حياته كالقسطاس المستقيم ، لا يجعل كفة تطغى على كفة ، ولا بحراً يبغي على بحر .

وتكشفت له حقيقة اللغز .

٢٩

عند هذا الحد صاح في نشوة فوز :-

عرفت اللغز ، إنه الوسطية العربية .

- تحوز الدنيا والدين .
- تجري وراء الحقيقة .
- لا تجعل مقاماً يطغى على مقام .

٣٠

صاح ديك فعرف من صوته أن الفجر الصادق قد أطل . كان صوته قوياً منتشراً ، يتزايد دون أن يتراجع فعرف أنها الحقيقة ، كان هناك عمود من نور ، قوي وواضح ، يخترق الظلام ، كان رقيقاً كالسهم ولكنه كان حاداً ، يشق الظلام ، فيفصله عن النور .

كان اللغز الثالث أشق الألغاز على نفسه .

أن تحتفظ بالمقامين دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، أمر يحتاج إلى فطنة .

وأن تكون فوق المقامين معاً ، أمر يحتاج إلى قوة .

وأن تحتفظ بالحركة بين المقامين ، أمر يحتاج إلى توازن .

وألا تخدع بالفجر الكاذب ، أمر يحتاج إلى توفيق .

تذكر الصراط المستقيم الذي يمر عليه الخلق يوم القيامة ، وأنه أحد من السيف وأرق من الشعرة ، وأحس أن اللغز الثالث لا يقل في دقته وحرجه عن هذا الصراط المستقيم .

وتذكر أيضاً ذلك الطائر الذي يقف في منتصف السماء ، جناحان قويان ، يتحركان حركة واحدة ، ويخفقان خفقة واحدة ، ورأس بينهما كقائم الميزان تحفظه من السقوط .

كان صوت الديك لا يزال قوياً ملحاً يضرب في أغوار الليل ، وكان عمود النور لا يزال يخترق فلول الظلام ، وكان صاحبنا قد أحس برجفة شديدة بعد أن حل اللغز الثالث ، فقام يحتضن الكون بظلامه ونوره دون أن يحس بالتناقض ، فهو أقوى من كل شيء .

٣١

كان يظن أن طائره سوف يخر صريعاً عقب اكتشافه اللغز .

ولكن وحده ينظر إليه في سعادة وحنو ويمد إليه يده .

عرف أنه لم يبرأ بعد من مضغة الشيطان ، وأن الأسطورة الإغريقية عن " أبي الهول" الذي يطرح الألغاز لا زالت تعيش داخله .

كان أبو الهول يلقي اللغز ، فإذا عجز الإنسان عن حله قتله .

وحدث أن " أوديب "قد فك اللغز فسقط أبو الهول تحت قدميه صريعاً.

أدرك في تلك اللحظة أن هذه الأسطورة تعبر عن روح صراع بين الكون والإنسان ، فالمرء إما قاتل أو مقتول .

كان الطائر لا يزال ينظر إليه في سعادة وحنو ، ويمد إليه يده .

أدرك أنه يعيش في منطقة أخرى وأن عليه أن يبرأ من بقايا الشيطان .

هنا تتصالح الأشياء ، يحب المرء الطبيعة ، وينظر الطائر إلى الإنسان نظرة السعادة والحنان .

هنا لا قاتل ولا مقتول ، الكل تحت رعاية الله .

لم يعد يستغرب صورة الثلج مع الماء دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، ولا صورة البحرين اللذين يتعايشان دون أن يبغي أحدهما على الآخر .

لم يعد يشعر حتى بالغرابة في ذلك ، فكل شيء مرهون بأمر الله .

٣٢

كان الطائر يمد إليه يده ويشير إليه بأن يتبعه .

وجد نفسه يخف ويشف ويتحول إلى طائر .

انطلق قوياً في السماء ، كصاروخ يخرج وراءه سحباً من نور .

تحول إلى كوكب لامع ، يقف في وسط السماء ، يشع نوراً في الشرق والغرب ، نور على نور .

رأى الناس تشير إليه بالبنان ، وسمع الجدات ينشدن قصته للأطفال .

فأحس أن سفر النصر قد بلغ تمامه .

٣٣

في لحظة خاطفة كالمعجزة أدرك السبب والنتيجة معاً .

في لحظة خاطفة كالإلهام ، تكشفت له الآية الكريمة ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس** ﴾ ، عن طاقات من الإشراق والتجليات .

أحس أن العقل العلمي بمناهجه المعهودة ، بطيء الخطوات ، لابد أن ينتقل من مرحلة إلى مرحلة ، ومن سبب إلى مسبب ، لابد من طريق طويل حتى يصل إلى الغاية .

لم يعد الآن وهو كوكب في منتصف السماء ، في حاجة إلى هذا الطريق الطويل أصبح يدرك كل شيء في لحظة خاطفة كالمعجزة .

رأى الناس في الشرق والغرب تشير إليه وهو في مكانه وسط السماء ، يتخذونه علامة على الطريق الصحيح ، أهل الشرق يسترشدون به ، وأهل الغرب يسترشدون به ، يجتمعون عليه وإن تفرقت بهم السبل .

فعرف أنه قد تحول إلى نموذج ، وتفتحت له الآية الكريمة عن تجليات كثيرة ، لم يعد في حاجة إلى أن يكرر ما ذكره في كتابه "الوسطية العربية" ، عن معنى الوسطية ولا عن معنى الشهادة ، أصبح يقع كل ذلك في قلبه في لحظة واحدة ، يتحد فيها الدال والمدلول ، وفي لغة تختصر الخطوات الطويلة والمتأنية .

لم يعد يشعر بالغرور والكبرياء .

اختفت تلك اللغة من قاموسه .

يكفيه أنه في منتصف السماء ، وأنه يضيء الشرق والغرب ، وأن الناس تستشهد به على الطريق الصحيح .

لا يبحث عن السبب فهو يعيشه ، ولا يشعر بالغرور ، فقد اختفت منه الذات ، واندمجت في الكل.

تحول إلى طائر يجول في سماء المنطقة ، يبحث عن الموعود .

وتحول إلى كوكب لامع يضيء الشرق والغرب معاً .

وأشرقت الأرض بنور ربها .

٣٤

تمت كلمة الله

" والله ليتمن هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه " (البخاري ي - ٤/٢٠٠) .

٣٥

من مرقبه وهو وسط السماء :-

رأى نفسه وهو يجلس في موسم الحج ، كان بجانبه تركي يحادثه وكأنهما صديقان قديمان ، كان يصغي إلى لغته العربية وهو يحمل المصحف الشريف ، وكأنه يستمع إلى ترانيم صلوات .

ورأى نفسه وهو في جيبوتي ، يجلس مع أسرة يمنيه ، كانت تتحادث معه دون تحفظ وتقدم له من فواكه بستانها ، حتى إذا أقبل جندي فرنسي ، انكمشت على نفسها ، وتغيرت لهجتها .

ورأى نفسه وهو في لندن بين الأسر الباكستانية ، في شقة منزوية ، كتب عليها باللغة العربية "مسجد" ، كانوا يتحلقون حوله ، ويقدمونه للصلاة ، ويدلونه على الأماكن التي تقدم اللحم الحلال .

ورأى نفسه وهو في نيجيريا ، كان اليوم يوم الجمعة ، الجميع يلبسون الأبيض ، ويذهبون إلى المسجد ، وكأنهم في موسم الحج ، كان الخطيب يخطب بلغة الهوسا ، ثم يعيد الخطبة باللغة العربية ، فأحس بالامتلاء ، وبأن الناس ينظرون إليه بإعجاب .

ورأى نفسه وهو في شانغهاي ، وحوله خمسة من طلبته الصينيين ، يتهتهون باللغة العربية ويطلبون منه أن يقوم نطقهم .

ورأى نفسه في قصر الحمراء بقرطبة ، ومرافقه الأسباني يحل له الأشعار العربية ، المكتوبة على الجدران ، ويشير إلى الفسقيات والفسيفساء .

ووجد نفسه أخيراً تصيح : أينما أتوجه أجد الرفيق ، وتزول عني وحشة الطريق ، في الشرق وفي الغرب أجد من يتفهم إشاراتي ، وينتظر كلامي .

وأعاد تلاوة الحديث النبوي من جديد ، وأحس باليقين ولم يعد يخشى الذئاب ، فقد " تمت كلمة الله " .

وكان هذا هو العنوان الذي اختاره للحديث النبوي .